مهمّاتٌ تربويّة

تقديم

أنا هيّ بنت عيد السمري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.

- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء التاسع عشر
سورة الشعراء 192- 227

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعل القرآن الكريم ربيعًا لقلوبنا ونورًا لصدورنا وجلاء لأحزاننا وهمومنا، اللهم آمين. لا زلنا بفضل الله نتذاكر هذا الشأن العظيم، شأن أهل القرآن وخاصته، فنبينا الكريم قد أخبرنا: «إن للهِ أَهلِين من الناسِ قالوا: من هم يا رسولَ اللهِ؟ قال: أهلُ القرآنِ هم أهلُ اللهِ وخاصتُه.»[1]

خصهم الله بهذا الشأن العظيم، وهو الإقبال على القرآن وفهمه وبذل الجهد في تدبره والعمل به، العمل القلبي والعمل الجارحي، بحيث يصبح القرآن هو إمامهم وقائدهم.

واليوم نقف على سورة الشعراء ونرى حال أهل القرآن مع القرآن، وما هي العقيدة التي يحملونها تجاه القرآن، فإن الشأن عظيمٌ والأمر خطيرٌ، فالواجب شدة العناية به؛ لأن وراء هذا

---

[1] () أخرجه ابن ماجة (215)، وأحمد (12292).

الشأن تحديد المصير. ننظر اليوم في سورة الشعراء في ثلاث خطوات:

الخطوة الأولى: النظر إلى موقع سورة الشعراء بالنسبة لما قبلها، بمعنى ما اسم السورة التي تسبقها؟ نجد أن قبلها سورة الفرقان، وقبل سورة الفرقان سورة النور التي وقفنا أمس على آيات منها، وسمعنا في سورة النور خبرًا عن آيات الله، قال تعالى: (لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ)، فجاءت سورة النور، ثم الفرقان، ثم الشعراء، **والعلاقة واضحة:** فإن هذا القرآن نورٌ، وضرب الله مثلًا لنوره في قلب المؤمنين في سورة النور، ثم أتت سورة الفرقان تبيّن أن هذا القرآن الذي كان نورًا في قلوب المؤمنين، هو الفرقان بين الحق والباطل، وبه يفرّق الإنسان، وبه يحصل التمييز بين الحق والباطل.

ثم تأتي سورة الشعراء، فما العلاقة؟ النور نور الله، نور الإيمان الذي نزل في القرآن، ثم هذا النور هو الفرقان الذي يحصل به التفريق بين الحق والباطل، ثم تأتي سورة الشعراء فيقال لنا: مَن معه القرآن سيفرق بين كلام رب العالمين وكلام غيره -سبحانه وتعالى-، ومن أكثر الكلام الذي يمكن أن يتصور أنه يختلط بكلام القرآن، كلام الشعراء؛ لأن في

غالب الشعر يأتي في أحيان كثيرة على لسان الشعراء حِكم، وقد كانت العرب تعتبر الشعر مستودع الحكمة، فربما ظن ظان أن القرآن مثل الشعر في حكمته، فقيل: "لا والله، أهل الإيمان يفرقون بين القرآن والشعر، ويعرفون ذلك بعلامات." فهذا هو مبدأ الكلام؛ أن موقع الشعراء واضح بعد سورة النور والفرقان.

الخطوة الثانية: قراءة مطلع السورة والإشارة إلى مضمونها العام.

بدأت هذه السورة العظيمة بمناقشة أمر مهم متصل بالكتاب بعد الحروف المقطعة (طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) آيات الكتاب بيّنة واضحة تدل على أنه حق. لماذا لم يؤمنوا؟ (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) يا رسول الله، ولا تظن أن هؤلاء لو نزلت عليهم آية حسيّة يمكن أن يؤمنوا، لا والله! إن يشاء الله ينزل عليهم من السماء آية حسية، لكنها ستكون في حق هؤلاء سببًا لإجبارهم على الإيمان ويكون معها العذاب، والله ما جعل الدنيا مكانًا للإجبار على الإيمان، بل هي مكان للاختيار. فالآيات بيّنات والكتاب بيّن (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) بيّن واضح، يميز بين الحق والباطل، فرقان.

ولو أرادوا الحق لوجدوا حولهم آيات كثيرة لأنهم (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ) هذه حالتهم كما قال الله في بداية السورة، ويقولون: "نريد آية"، فلا تظن يا رسول الله، أن هؤلاء لو نزلت عليهم آية حسية وكانوا مختارين فيها، أنهم سيؤمنون، لو نزلت عليهم آية حسية سيكذبون بها كما كذبوا بكل الآيات، وربنا قادر على أن ينزل عليهم آية بيّنة حسية واضحة، لكن إذا نزلت وما آمنوا كان لهم الهلاك. والحقيقة أن لديهم آيات حسية أخبر عنها -عزَّ وجلَّ- (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) لكنهم ما انتفعوا بها؛ لأنهم معاندون، فمهما عُرضت عليهم الآيات فهم ليسوا مشغولين بها، وإنما مشغولون بالعناد.

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) وستأتينا إشارة إلى هذا المعنى في آخر السورة لما أمرنا رب العالمين بالتوكل عليه. فأشار رب العالمين في أول الأمر إلى أن حولهم آيات: (الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) فيها آية، لكن هل أنت حقًا طالب للحق، لو كنت طالبًا للحق ستجد حولك من الآيات ما يدلك على الحق.

ثم رب العالمين في هذه السورة الكريمة أورد أخبار أنبياء ومرسلين بشيء من التفصيل، وهؤلاء الأنبياء والمرسلون آثارهم باقية حولنا وحول العرب وحول الناس إلى أن تقوم الساعة، ومعارفهم معروفة، فأخبر الله -عزَّ وجلَّ- عن موسى -عليه السلام- وحاله مع فرعون والسحرة، وهي من القصص التي اشتهرت وهي معروفة ومبثوثة في التاريخ، وكأنه مطلوب منا أن نفكر في هذه الآية وهي إهلاك الله لفرعون وإنجاء الله لموسى، خبر تعرفونه (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (121) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) وقد تكرر ذكر هذه الجملة (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (121) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) تسع مرات في السورة. المرة الأولى في الآية الثامنة والتاسعة، ثم بعد قصة موسى، ثم بعد قصة إبراهيم، ثم بعد قصة نوح، ثم بعد قصة هود، ثم بعد قصة صالح، ثم بعد قصة لوط، ثم بعد قصة شعيب عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وخمس مرات تكررت في السورة: (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) على لسان نوح وهود ولوط وصالح وشعيب، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم. وذكر الله في كل قصة من هذه القصص أن الأنبياء أتوا بآيات لأقوامهم، لكن لم يؤمنوا.

ما نفعتهم الآيات الحسية، كما يُعتقد، كثير منّا يظن أنه لو أتت آية واضحة تأمر الناس بكذا وتنهاهم عن كذا أنهم سيؤمنون، والحقيقة أن هذا ليس واقعًا، وأن الآيات البينات قد أتت مع هؤلاء الرسل جميعًا، السبع رسل الذين ذكروا في سورة الشعراء، كلهم أتت معهم آيات تدل على رسالاتهم، ومع ذلك لم تنفعهم الآيات؛ لذا عندما تذهب إلى سورة النمل بعد الشعراء، تجد خبرًا عجيبًا يفسر لك ذلك: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) .

سورة الشعراء تخبر عن أن الآيات الحسية قد أتت مع الأنبياء وسورة النمل تقول: لماذا لم تنفعهم؟ (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا).

إذًا يكفي أن تتأمل في آية النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وتعلم أنها من أعظم الآيات التي أتت مع المرسلين، وترى أن من نعمة الله أن أعزّنا بأن كنا من أتباع نبينا محمد -صلَّى الله عليه وسلَّم- الذي كانت آيته القرآن.

في الخطوة الأولى رأينا موقع سورة الشعراء من القرآن، ما قبلها وما بعدها والخطوة الثانية رأينا مطلع السورة وأشرنا إلى مضمونها العام، فكأنه يقال: هذه الآيات الحسية

إذا كان الإنسان معاندًا، فإنها لا تنفع، بدليل قوله تعالى: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) ما آمنوا ولا انتفعوا بها. وإنما الآية الباقية هي آية النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- . فنبينا -صلَّى الله عليه وسلَّم- قد مُنّ عليه بهذا القرآن، ومُنّ على أمته بهذا القرآن.

الخطوة الثالثة: ننظر إلى آخر السورة ابتداء من الآية: (192).

سنشير بالإجمال إلى ما دلّت عليه هذه الآيات من تعظيم القرآن، فوجب على أهل القرآن أن يتلوا هذه الآيات تلاوة من يعلم أن من نعمة الله عليه أن جعله من أهل القرآن، نسمع الآيات ثم نشير إلى ما يتيسر من معانيها:

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (196) أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (197) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (201) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

(202) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (203) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (204) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (207) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (208) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (209) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (212) فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220) هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (223) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)

بعدما سمعنا هذه الآيات البيّنات في الخبر عن القرآن، نفهم منها أن أهل القرآن يستغنون بالقرآن عن غيره خاصة عندما يسمعون هذه الآيات الكريمات؛ لأنهم يسمعون في الثناء على هذا القرآن الشيء العظيم، يسمعون: (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ) ، يقول الشيخ السعدي:

"لما ذكر قصص الأنبياء مع أممهم، وكيف دعوهم، و[ما] ردوا عليهم به؛ وكيف أهلك الله أعداءهم، وصارت لهم العاقبة. ذكر هذا الرسول الكريم -صلَّى الله عليه وسلَّم- والنبي المصطفى العظيم وما جاء به من الكتاب،" الذي هو آية النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، الكتاب الذي تحمله بين يديك، تحمل المصحف كاملًا في كفك، وتنطقه بلسانك، وهي آية عظيمة، أعظم آية نزلت على رسول، وقد أخبر الرسول بذلك كما في صحيح البخاري، كتاب الاعتصام.

"الذي فيه هداية لأولي الألباب أصحاب العقول السليمة، وليس الذين يتكففون على موائد الشرق والغرب أطروحات فكرية، وهدايات سلوكية، أولو الألباب هم الذين سينتفعون من هذا الكتاب، ذكر هذا الرسول وذكر كتابه فقال: (وَإِنَّهُ

لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) فالذي أنزله، فاطر الأرض والسماوات، المربي جميع العالم، العلوي والسفلي، وكما أنه رباهم بهدايتهم لمصالح دنياهم وأبدانهم، فعلّمنا -سبحانه وتعالى-، كيف ننتفع من الأرض وكيف يحصل لنا الزرع، علّمنا وعلّم الخلق أمورًا كثيرة إصلاح دينهم، هل يُظنّ أنه يترك آخرتهم التي من أجلها خلقوا؟! فإنه يربيهم أيضًا، بهدايتهم لمصالح دينهم وأخراهم، ومن أعظم ما رباهم به، إنزال هذا الكتاب الكريم، لذلك (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) رب العالمين الذي رباكم أنزل الكتاب، الذي اشتمل على الخير الكثير، والبر الغزير، وفيه من الهداية، لمصالح الدارين، والأخلاق الفاضلة، ما ليس في غيره، وفي قوله: (وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) من تعظيمه وشدة الاهتمام فيه، من كونه نزل من الله، آية عظيمة نقرؤها ونتأملها ونرى نعمة الله العظيمة علينا بالقرآن، نسأل الله أن نكون من أهله! لا من غيره، مقصودًا فيه نفعكم وهدايتكم. نزل من الله العظيم، مَن الذي نزل به؟ (نزلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ) وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أفضل الملائكة وأقواهم (الأمِينُ) الذي قد أمن أن يزيد فيه أو ينقص.

على ماذا نزل هذا القرآن؟ على قلبك؛ لذلك أهل الإيمان يعرفون أن أهم شيء القرآن ينزل على القلب، ولما أخبر -عزَّ وجلَّ- عن أولئك الذين لم يؤمنوا من الأعراب وإنما ادعوا فقط الإيمان، قال لهم: (قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)[2] لا بد أن يدخل الإيمان في القلب. كيف يدخل القرآن في القلب؟ ينزل القرآن على القلب.

(عَلَى قَلْبِكَ) يا محمد (لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ) تهدي به إلى طريق الرشاد، وتنذر به عن طريق الغي.

القرآن نزل على قلب محمد -صلَّى الله عليه وسلَّم- فمباشرة حصل الأثر؛ فكان -صلَّى الله عليه وسلَّم- من المنذرين نتيجة نزول القرآن على قلبه، وهكذا نزول القرآن على قلوبنا يسبب الإيمان ومن ثم يسبب نفعنا ونفع غيرنا. ونزل هذا القرآن بلسان عربي.

(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ) وهو أفضل الألسنة، بلُغة مَن بُعث إليهم، وباشر دعوتهم أصلًا اللسان البيّن الواضح." هذا اللسان العربي هو أفضل الألسنة، تكلم به الله -سبحانه وتعالى-،

---

[2] () الحجرات: 14.

وتكلم به نبينا -صلَّى الله عليه وسلَّم- وهو لسان القوم الذين أُرسل النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- لهم أولًا.

"وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم، فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل بضعة فيه وهي قلبه، على أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها، وأوسعها، وهو: اللسان العربي المبين.

فماذا تريد أعظم من هذه النعمة؟ وكيف لا تكون من أهلها؟ وكيف لا تغتنم علاقتك بالقرآن فتجعله إمامك الذي يقودك. ثم أخبرنا أن هذا الكتاب العظيم قد بشرت به كتب الأولين وصدقته.

(وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ) (وَإِنَّهُ) يعني القرآن قد ذُكر في زبر الأولين، ودليل ذلك أنه يعلمه علماء بني إسرائيل، أي: قد بشرت به كتب الأولين وصدقته، وهو لما نزل، طبق ما أخبرت به، صدقها، بل جاء بالحق، وصدق المرسلين.

(أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً) على صحته، وأنه من الله (أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ) الذي قد انتهى إليهم العلم، وصاروا أعلم الناس، وهم أهل الصنف، فإن كل شيء يحصل به اشتباه،

يرجع فيه إلى أهل الخبرة والدراية، فيكون قولهم حجة على غيرهم، كما عرف السحرة الذين مهروا في علم السحر، صدق معجزة موسى، وأنه ليس بسحر، فقول الجاهلين بعد هذا، لا يؤبه به.

فهم متخصصون يعرفون أن هذا القرآن وهذا الرسول رسول من عند الله، يعرفون كل الدلائل على أنه رسول؛ لذلك كان المكذبون منهم عليهم من عذاب الله وعقابه الشيء العظيم.

(وَلَوْ نزلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ) الذين لا يفقهون لسانهم، ولا يقدرون على التعبير لهم كما ينبغي. (فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ) يقولون: ما نفقه ما يقول، ولا ندري ما يدعو إليه، وهذا أحد المعاني في تفسير الآية ويمكن أن نراجع بقية التفاسير ونجد معنى آخر، لكن نريد أن نصل إلى مقصدنا. فليحمدوا ربهم، أن جاءهم على لسان أفصح الخلق، وأقدرهم على التعبير عن المقاصد، بالعبارات الواضحة، وأنصحهم، النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- أصدق وأفصح وأنصح الخلق، وليبادروا إلى التصديق به، وتلقيه بالتسليم والقبول، لكن كما علمنا (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ)

ولكن تكذيبهم له من غير شبهة، إن هو إلا محض الكفر والعناد، وأمر قد توارثته الأمم المكذبة."

"(كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ) عندما يصبحون مجرمين ويقطعون الصلة بينهم وبين الحق، يكونون مستحقين لهذا العقاب، ما هو هذا العقاب؟ أي: أدخلنا التكذيب، وأنظمناه في قلوب أهل الإجرام، ردوه فلا يفتح لهم الباب لأن الله يحول بين المرء وقلبه (كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ).

وأنظمناه في قلوب أهل الإجرام، أصبح التكذيب نظامًا لهم، كما يدخل السلك في الإبرة، أصبح سلوكًا لهم يسلكونه، الأقدمون يرون أن هذا سينازعهم قوتهم فيرفضوه، فتشربته، وصار وصفًا لها، وذلك بسبب ظلمهم وجرمهم، صار هذا نظامهم.

(لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ) على تكذيبهم."

هنا نشهد قضية خطيرة وهي أن هؤلاء مشكلتهم كبيرة جدًا لأنهم لا يؤمنون بالغيب، ولا ينتفعون مما حولهم من الآيات. من أول السورة ربنا قال لهم: "انظروا للآيات التي حولكم، انظروا إلى ما أنبت الله، -عزَّ وجلَّ- في الأرض، ألستم

تأكلون ما أنبت الله؟" بلى، يأكلون ما أنبت الله لكنهم يأكلون مثل البهائم، وإلا فالإنسان العاقل ينظر في طعامه، وهذا الذي أمرنا الله به، كما في سورة عبس. الفرق بين الإنسان العاقل والبهائم الإيمان بالغيب. البهيمة عندما تأتي على النباتات تأكلها دون أن تفكر كيف نبتت وكيف خرجت وما مراحل نموها، لا تفكر في هذا أبدًا، وجدت مبتغاها تهجم عليه وتقضي وطرها منه، لكن الإنسان مختلف، ينظر؛ لذلك رب العالمين أمرنا بذلك: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) فما بالك لا تنظر؟ هؤلاء لا ينظرون، بل يريدون الأشياء محسوسة ولا يفكرون إلا في ظاهر الأمر ولا يرون دلالته، حتى أنهم لا يؤمنون إلا إذا رأوا العذاب الأليم، فهذا نوع إهانة للنفس الإنسانية. أنت عندك سمع وبصر وفؤاد تفكر به، فكر حتى تصل إلى النتائج، إذا كان الإنسان لا يريد أن يؤمن إلا إذا رأى العذاب، فما فائدة الإيمان حينئذ؟ هذا ليس وقت الإيمان كما في سورة يونس (آلْآنَ)؟! ذهب الوقت، لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

"(فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) أي: يأتيهم على حين غفلة، وعدم إحساس منهم، ولا استشعار بنزوله، ليكون أبلغ في عقوبتهم والنكال بهم. وقتها يقولون: هل نحن منظرون؟ أعطنا يا رب، وقتًا نصلي ركعتين، نتصدق، نفعل!

(فَيَقُولُوا) إذ ذاك: (هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ) أي: يطلبون أن ينظروا ويمهلوا، والحال إنه قد فات الوقت، وحل بهم العذاب الذي لا يرفع عنهم، ولا يفتر ساعة. نعوذ بالله من الخذلان، نسأل الله أن نكون من المغتنمين للأوقات، ومغتنمين لما مكنا الله منه! (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ) عذاب الله لا يستهان به.

يقول تعالى: (أَفَبِعَذَابِنَا) الذي هو العذاب الأليم العظيم، الذي لا يستهان به، ولا يحتقر، (يَسْتَعْجِلُونَ) فما الذي غرهم؟ هل فيهم قوة وطاقة، للصبر عليه؟ أم عندهم قوة يقدرون على دفعه أو رفعه إذا نزل؟ أم يعجزوننا، ويظنون أننا لا نقدر على ذلك؟

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ) أي: أفرأيت إذا لم نستعجل عليهم، بإنزال العذاب، وأمهلناهم عدة سنين، يتمتعون في الدنيا

ما عجل الله لهم العذاب، أمهلهم الله وهذا حاصل لغالب أهل الأرض من الكفرة والفجرة والمنافقين. لو مُتع، كم يريد أن يتمتع؟ خمسين؟ ستين؟ ثمانين؟ مئة عام؟ وبعد ذلك؟!

(ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ) من العذاب.

مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ من اللذات والشهوات، بل والله إن الإنسان يأكل الأكلة فيتمتع بأول اللقم ثم تنتهي اللذة، يشتري الفاخر من الثياب ثم بعد لحظات تنتهي اللذة، أي: أي شيء يغني عنهم، ويفيدهم، وقد مضت وبطلت واضمحلت، وأعقبت تبعاتها، وضوعف لهم العذاب عند طول المدة. القصد أن الحذر، نعوذ بالله من أن يمكر الله بنا، نعوذ بالله من أن يغرنا الشيطان. من وقوع العذاب، واستحقاقهم له. وأما تعجيله وتأخيره، فلا أهمية تحته، ولا جدوى عنده.

ثم يخبر تعالى عن كمال عدله، (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (208) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ) الله -عزَّ وجلَّ- يرسل الآيات والنذر، يرسل الأنبياء والمرسلين، ينذرنا بصور متعددة من أنبياء ومرسلين وبأساء وضراء وأمراض وحروب كلها نذر، في إهلاك المكذبين، وأنه ما أوقع بقرية، هلاكًا وعذابًا، إلا بعد أن يعذر بهم، ويبعث فيهم النذر

بالآيات البينات، ويدعونهم إلى الهدى، وينهونهم عن الردى، ويذكرونهم بآيات الله، وينبهونهم على أيامه في نعمه ونقمه.

(ذِكْرَى) لهم وإقامة حجة عليهم. (وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ) ما يظلم الله أحد فنهلك القرى، قبل أن ننذرهم، ونأخذهم وهم غافلون عن النذر، كما قال تعالى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ).

ثم يأتينا خبر آخر مهم جدًا، سمعنا في (192) (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) والآن نسمع مرة أخرى (وَمَا تَنزلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ) .

ولما بيَّن تعالى كمال القرآن وجلالته، نزهه عن كل صفة نقص، وحماه -وقت نزوله، وبعد نزوله- من شياطين الجن والإنس فقال: (وَمَا تَنزلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ)" .

نقرأ هنا كلام ابن كثير في بيان هذه الآيات؛ لأن رب العالمين بيّن أن هناك ثلاثة أسباب تدلّك على أن هذا القرآن لم تنزل به الشياطين، فلا يقال: "ما أدراني أن هذا القرآن حق؟"، توجد طريقة واضحة تعرف بها أن القرآن حق. نقرأ كلام **ابن كثير** في ذلك:

"يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ: أَنَّهُ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ الْمُؤَيَّدُ مِنَ اللَّهِ، (وَمَا تَنزلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ) . ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ مَا يَنْبَغِي لَهُمْ، أَيْ: لَيْسَ هُوَ مِنْ بُغْيتهم وَلَا مِنْ طِلْبَتِهِمْ؛ لِأَنَّ مِنْ سَجَايَاهُمُ الْفَسَادَ وَإِضْلَالَ الْعِبَادِ، وَهَذَا أي القرآن، فِيهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَنُورٌ وَهُدًى وَبُرْهَانٌ عَظِيمٌ، فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّيَاطِينِ مُنَافَاةٌ عَظِيمَةٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: (وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ).

نركز على هذا السبب الأول، أن هذا ليس بغيتهم، فكيف تأتي به الشياطين؟ مقاصد القرآن خلاف مقاصد الشيطان، بمعنى أن الشياطين تريد الإفساد، والقرآن ما فيه إلا الصلاح والإصلاح، تريد الباطل والقرآن ما فيه إلا الحق، بهذا انتفى الأمر الأول. (وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ). بمعنى أنه ليس من بغيتهم ولا من طلبتهم، ليس هذا الكلام الذي يبغونه. السبب الثاني:

وَقَوْلُهُ: (وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) أَيْ: وَلَوِ انْبَغَى لَهُمْ لو أرادوا شيئًا منه، لَمَا اسْتَطَاعُوا ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ

عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) [الْحَشْرِ:٢١]

.

السبب الأول أنه ليس من بغيتهم، لو افترضنا أنهم يبغونه، لا يستطيعون أن يستمعوا للقرآن وينصتوا له لأن قلوبهم فاسدة؛ لأنهم يكرهون الحق، ليس بغيتهم، ولو بغوه حالهم لا يسمح بحمله لما في قلوبهم من فساد، والقلب الفاسد لا يستطيع أن يحمل القرآن.

السبب الثالث:

ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُ لَوِ انْبَغَى لَهُمْ وَاسْتَطَاعُوا حَمْلَهُ وَتَأْدِيَتَهُ، لَمَا وَصَلُوا إِلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ بِمَعْزِلٍ عَنِ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ حَالَ نُزُولِهِ؛ هل يمكن أن يكون القران نزل به الشيطان على قلب النبي، -صلَّى الله عليه وسلَّم- ؟ لا والله، القرآن ليس من إراداتهم ولا يحبونه ولا يريدون أن يوصلوا الحق والخير أبدًا، ولا يستطيعون أن يتحملوا نقله؛ ولذلك قد ورد في بعض الآثار أن الشيطان لو حمل القرآن لاحترق فقلبه فاسد، والأمر الثالث أنهم عن السمع معزولون.

لِأَنَّ السَّمَاءَ مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا فِي مُدّة إِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَى رَسُولِهِ، فَلَمْ يَخْلُصْ أَحَدٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ إِلَى اسْتِمَاعِ حَرْفٍ

وَاحِدٍ مِنْهُ، لِئَلَّا يَشْتَبِهُ الْأَمْرُ. وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ، وَحِفْظِهِ لِشَرْعِهِ، وَتَأْيِيدِهِ لِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: (إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ) ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْجِنِّ: (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا * وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا)"

هذه الثلاثة أسباب من الضروري أن نتذكرها كلما قرأنا، ونحن نقرأ في سورة الشعراء قوله تعالى: (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ) ونستمر في القراءة وننتبه: (وَمَا تَنزلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ) من المؤكد أنها ما تنزلت به الشياطين؛ لأنهم لا يريدون هذا الخير ولا يستطيعون حمله لما في قلوبهم من فساد، ولأن الله عزلهم أصلًا عن القرآن، فتبين بذلك أن القرآن نزل من عند الرحمن، سبحانه وتعالى. نعود إلى كلام الشيخ السعدي:

"(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) ينهى تعالى رسوله أصلًا وأمته أسوة له في ذلك، عن دعاء غير الله، من جميع المخلوقين، وأن ذلك موجب للعذاب الدائم، والعقاب

السرمدي، لكونه شركًا، و مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ والنهي عن الشيء، أمر بضده، فالنهي عن الشرك، أمر بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، محبة، وخوفًا، ورجاء، وذلًا وإنابة إليه في جميع الأوقات."

معنى ذلك أن رب العالمين يأمر رسوله بالتمسك بهذا الدين، فالشياطين تدعو إلى الطواغيت، والقرآن يدعو إلى الله الحق المبين، فهل يمكن للنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- أن يدعو غير الله؟ حاشاه -صلَّى الله عليه وسلَّم- فهو المعصوم لكن هذا الكلام لمن وراء النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- .

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) وهذا لكل من سمع القرآن يحثّه على تدبر معناه ومقصده ومغزاه ليعلم أن القرآن مقاصده في غاية المباينة للشياطين وضلالهم، وأن مقاصد القرآن ملائمة للمقربين وأحوالهم، لأهل القرآن، لأهل الله وخاصته، وهذا كله لزيادة الحث على اتباع الهدى وتجنب الردى، وليأتي بعده (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) وهذا حاصل، أن يأتي كثير ويعصي النبي

-صلَّى الله عليه وسلَّم- فإذا حصل هذا العصيان، وحصل هذا الرد للحق، (قُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) وأيضًا (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) معطوفة عليها، تبرأ منهم وانصرف عنهم وكن مطمئنًا لرب العالمين، كن متوكلًا عليه وهو حسبك ونعم الوكيل. كن معتصمًا به واعلم أنه ينجيك، حتى لو حصل منهم اجتماع على معاداتك، يقول الشيخ السعدي في قوله تعالى: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ):

"أعظم مساعد للعبد على القيام بما أمر به، الاعتماد على ربه، إي والله، ونحن على الله معتمدون، والاستعانة بمولاه على توفيقه للقيام بالمأمور، فلا يمكن أن نهتدي الصراط المستقيم بدون ما نعتمد على رب العالمين، فلذلك أمر الله تعالى بالتوكل عليه فقال: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) والتوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى، وهذا لا يكون إلا بمعرفة الله العزيز الرحيم، فبعزته يقول للشيء: "كن" فيكون ويوصل لنا الخير، وبعزته يقول للشيء: "كن" فيكون ويدفع عنا الشر، وبرحمته يختار لنا ما يوصلنا إلى مصالحنا، وبرحمته يختار لنا ما يرفعنا عنده -سبحانه وتعالى-، فالتوكل لا يكون إلا بمعرفة الله، في جلب المنافع، ودفع المضار، مع ثقته به، وحسن ظنه بحصول مطلوبه، فإنه عزيز رحيم،

بعزته يقدر على إيصال الخير، ودفع الشر عن عبده، وبرحمته به، يفعل ذلك." فبعزة الله يغلب الأعداء، بعزة الله يرد الله شر أهل الشر من اليهود والنصارى ومواليهم، يرد شر المنافقين عنا، بعزته -عزَّ وجلَّ- فهو القادر على غلبة كل الأعداء وإبطال مكرهم، وبرحمته -عزَّ وجلَّ- يحفظ علينا ديننا وإيماننا وأماننا وأوطاننا وعقيدتنا. فنحن على الله متوكلون، نفوض أمرنا إليه ونعلم أن تفويض الأمر إليه يسبب الكفاية منه. والناس في دنياهم يوكلون من يعرفون أنه يكفيهم، ونحن نتوكل على الله ونعرف أنه يكفينا، فهو عزيز -عزَّ وجلَّ- ماضٍ أمره، لا يستطيع أحد ردّ أمره، رحيم بالمؤمنين، ما يريد إهلاك دينهم إنما يرسل لهم الآيات والنذر ليكونوا مستيقظين فلا تأخذهم الدنيا عن الدين. لذا يقول رب العالمين لرسوله: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ) يعني أن هذا التوكل إنما يؤيده القيام، وخاصة قيام الليل، فالعزيز الذي ينتقم من الظالمين، ولا أحد يستطيع أن يغالبه، الرحيم الذي يرحم أولياءه، سينصرنا بعزته ورحمته، لكن هذا الأمر يحتاج منا إلى مسلك نسلكه؛ التوكل على العزيز الرحيم، يُساند بقيام الليل (الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ).

هذا التوكل ليس أمرًا تأمر به نفسك، تقول لها: "توكلي" فتتوكل، إنما هو مطلب تطلبه لنفسك وتسيره من طريق قيام الليل وكثرة السجود (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) الذي يسمع نداءك ورجاءك، الذي يعلم ما في قلبك وصدقك؛ لذلك نحن نستعيذ بالله من عين لا تدمع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع ومن صلاة لا تنفع، ونذكر أنفسنا: (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

ثم تختم السورة بمعنى عظيم جدًا نقوله على عجالة شديدة: (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ) لا يمكن أن تنزل الشياطين على مثل قلب النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- إنما تنزل (عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) ، لهم صفات، هؤلاء (يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (223) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) كأنه يقال: الشياطين لها أهلها الذين تنزل عليهم، ولهم صفات، وهنا ذكر الشعراء، فعُلم أن الوحي الذي نزل على النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- مفارق تمامًا لكلام الشياطين وكلام الشعراء، فإن الشياطين لها وحي يأتي للناس، وقد كانوا يعتقدون أن الشعراء لهم نوع اتصال بالجن، خاصة الشعراء الماهرين، فعلى من تنزل الشياطين؟ لهم صفاتهم (عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) من يكثر الكذب ويختلقه، فنحن نستطيع أن نفرق بين كلام رب العالمين وكلام الشياطين، بين من يتبع كلام

رب العالمين وبين من يتبع الشياطين، فهؤلاء أفاكون آثمون وأكثرهم كاذبين.

وانظر أيضًا إلى أتباع الشعراء، من هم؟ الغاوون، الذين يحبون الغواية، يريدون الضلالة، وشاهد ذلك أنهم (فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ) يتكلمون في كل شيء، الشعراء وأتباعهم، في مقابل أن أهل الإيمان لا يتكلمون إلا فيما يعنيهم وما يترتب عليه عمل، وما ينفعهم في دينهم، وإذا قال لهم الشرع: "اسكتوا" سكتوا، وإذا أمرهم بالكلام تكلموا، لكن من يتكلم في كل شيء فهو ممن (فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ) .

هؤلاء علامتهم العامة الكذب، وعلامتهم وعلامة أتباعهم: أنهم غاوون، يحبون الغواية، (أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ).

الصفة الأولى: الكذب صفة عامة وتفاصيله والصفة الثانية: أنهم يتكلمون في كل شيء، والصفة الثالثة: أنهم يقولون ما لا يفعلون. فتجدهم يمتدحون الصدق والخير لكن يقولون ما لا يفعلون، يتكلمون عن أخلاق كاملة ولا يطبقونها.

ثم يستثني الله هؤلاء (إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا) ، ننظر في هذه الصفات ونرى هذه الأحوال العجيبة.

أخبرنا -عزَّ وجلَّ- على من تنزل الشياطين، وذكر فيمن ذكر الشعراء، وهذه من التهم التي اتهم بها النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، فبيّن -عزَّ وجلَّ- أنه لا تنزل عليه الشياطين، إنما تنزل على من له صفة الكذب. وبرّأه -عزَّ وجلَّ- من صفة الشعراء الذين يكونون في غاية الغواية، ويهيمون كما يقول الشيخ السعدي، تارة في مدح وتارة في قدح وتارة في صدق وتارة في كذب وتارة يتغزلون وأخرى يسخرون، وكما تبين:

"(وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ) أي: هذا وصف الشعراء، أنهم تخالف أقوالهم أفعالهم، فإذا سمعت الشاعر يتغزل بالغزل الرقيق، قلت: هذا أشد الناس غرامًا، وقلبه فارغ من ذاك، وإذا سمعته يمدح أو يذم، قلت: هذا صدق، وهو كذب، وتارة يتمدح بأفعال لم يفعلها، وتروك لم يتركها، وكرم لم يحم حول ساحته، وشجاعة يعلو بها على الفرسان، وتراه أجبن من كل جبان، هذا وصفهم. كأنه يقال:

فانظر، هل يطابق حالة الرسول محمد -صلَّى الله عليه وسلَّم- ، الراشد البار، الذي يتبعه كل راشد ومهتد، الذي قد استقام على الهدى، وجانب الردى، ولم تتناقض أفعاله ولم تخالف أقواله أفعاله؟ الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، ولا أخبر بشيء إلا صدق، ولا أمر بشيء إلا كان أول الفاعلين له، ولا نهى عن شيء إلا كان أول التاركين له. فهل تناسب حاله، حالة الشعراء، أو يقاربهم؟ أم هو مخالف لهم من جميع الوجوه؟ فصلوات الله وسلامه على هذا الرسول الأكمل، والهمام الأفضل، أبد الآبدين، ودهر الداهرين، الذي ليس بشاعر، ولا ساحر، ولا مجنون، ولا يليق به إلا كل كمال."

نؤكد في آخر السورة، لما وصف الله الشعراء استثنى منهم هؤلاء كما يقول الشيخ السعدي:

"ولما وصف الشعراء بما وصفهم به، استثنى منهم من آمن بالله ورسوله، وعمل صالحا، وأكثر من ذكر الله، وانتصر من أعدائه المشركين من بعد ما ظلموهم.

فصار شِعرهم من أعمالهم الصالحة، لا يُذم الشعر إطلاقًا إنما على حسب الحال، وآثار إيمانهم، لاشتماله على مدح

أهل الإيمان، والانتصار من أهل الشرك والكفر، والذب عن دين الله، وتبيين العلوم النافعة، والحث على الأخلاق الفاضلة فقال: (إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) ينقلبون إلى موقف وحساب، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، إلا أحصاها، ولا حقًا إلا استوفاه. والحمد لله رب العالمين."

نؤكد على أن هؤلاء لهم صفات، كيف تعرف أن هؤلاء دخلوا في الاستثناء وهم أتباع الأنبياء؟ نركز على الآيات لنرى الفوارق بين الشعراء الذين (فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ) وبين المتكلمين الذين هم أتباع النبي:

الأمر الأول: أنهم مؤمنون.

الأمر الثاني: تراهم يعملون الصالحات.

الأمر الثالث: ذكروا الله كثيرًا.

بمعنى أنك عندما تسمع كلام هؤلاء المتكلمين من شعراء أو غيرهم تجدهم يكلمونك عن تعظيم شرع الله، عن تعظيم النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، عن وجوب اتباع الحق، عن وجوب نصرة الدين، عن البذل من أجل الوصول إلى رب

العالمين، يكلمونك عن رب العالمين، كيف تصل إلى النجاة عند رب العالمين.

هذه هي أسهل طريقة تميز بها بين المتكلمين الذين تسمعهم، هل هم أتباع الأنبياء أم أتباع الشياطين؟ أتباع الأنبياء هم بأنفسهم مؤمنون ويعملون الصالحات ويذكرون الله كثيرًا، في مقابل أن أولئك هم بأنفسهم فاسدون كاذبون، وأتباعهم غاوون ويقولون ما لا يفعلون، فتعلم بذلك أن الاستقامة على الدين ليست مجرد أهواء يميل بها الإنسان كأهواء الشعراء، كأن الشعر قوة نفسية تكون عند الإنسان فيميل بها كل الميل، وتجد في نفسه الكلام غير منضبط، فهنا يغضب وهنا ينفعل، وهنا تكون في نفسه حمية.

فرق كبير بين ما أتى به الأنبياء ومن ثمَّ حصلت متابعة ممن بعدهم، وبين ما أتى به الشياطين وكانوا أعوانًا للشعراء، وكانوا غاوين، فرق بين هذا وهذا يعلمه أهل الإيمان.

نسأل الله أن يجعلنا ممن عظّم نعمته وشكرها حق الشكر، نعمة القرآن تلاه ليلًا ونهارًا، واستعان برب العالمين لفهم

هذا القرآن العظيم وقام الليل فقرأ من كلام ربه ما يزيده ثباتًا ويقينًا والحمد لله رب العالمين.